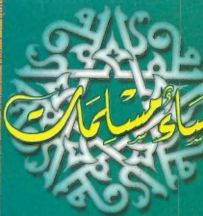


١٩



أُمِّ حَبِيبَةَ رَفَلْتِ يَدِي الْجَسْفِيَاكِ

الجزء الثاني

مَكَاتِهَا يَبْنِي نِسَاءَ النَّبِيِّ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافي سيد
إشراف : ا. حمدي مصطفى

مكتبة الامام الفاضل السيد محمد باقر المجلسي

آن الأوان لكى تهاجر رملة بنت أبي سفيان والمسلمون إلى المدينة المنورة ، حيث كان المسلمون هناك يحتفلون بنصرهم المؤزر على اليهود في غزوة خیبر ، وودع النجاشي المسلمين الذين عاشوا في كنفه وتحت رعايته ، يتعمون بالأمن والأطمئنان ، وأوصاهم أن يقرئوا الرسول ﷺ السلام .

واستقبلت المدينة المنورة خبر رملة والمهاجرين من الحبشة بالبشر والترحاب ، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً على هؤلاء المهاجرين ، وما إن رآه الرسول ﷺ حتى قام إليه بنفسه واحتضنه ثم قبل ما بين عينيه وقال في سعادة :
- واللّٰه ما أدرى بأيهما أفرح ؟ أبتفتح خیبر ؟ أم بقُدوم جعفر ومن معه من المسلمين .

وضم الرسول ﷺ رملة بنت أبي سفيان إلى نسائه ، وأخذت تصوراً مكانها في حياة النبي ﷺ يوماً بعد يوم ، فهي امرأة جاهدت في سبيل الله ، وصبرت على الابتلاء ، فكافأها الله (تعالى) بالزواج من رسول الله ﷺ .

كانت رَمْلَةُ بنتُ أَبِي سُفْيَانَ سَعِيدَةً بِزَوَاجِهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ،
واعتُبرتْ هِيَ وأهلُها هذا الزَّوْجَ تَشْرِيفًا لَهَا ولِقَوْمِهَا ،
ورَفْعًا لأَقْدَارِهِمْ ، غيرَ أَنَّ أَهْمَ ما كانَ يورِّقُها هو كُفْرُ أبيها
الذي ربَّاهَا وأنفقَ عليها ، وتصدَّيه لِزَواجِها ﷺ بِكُلِّ
ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ .



وتمت رملة أن تحدث المعجزة ، ويسلم أبوها ، وينضم
إلى كتية الإيمان .. وهل ذلك على الله بعيد ؟ ألم يسلم
من قبل عمر بن الخطاب وكان من أشد الناس عداء للرسول ﷺ ؟
فلم لا يفتح أبوها قلبه ، ويصغي لصوت الحق ؟

ولعل رملة بنت أبي سفيان كانت ترجو أن تكون
في مكانة عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن
الخطاب ، بعد أن صارت زوجة للنبي ﷺ وأما للمؤمنين ،
ولكن أنى لها ذلك ؟ وأبو بكر وعمر قد بشرهما
رسول الله ﷺ بالجنة ، أما أبوها فهو ما يزال على
عناده وكفره !

ومضت الأيام مسرعة ، ورملة تعيش في بيت النبوة تنعم
برؤية النبي ﷺ وتحظى بقرينه ، وكانت تدرك بحسها
ووعياها أن المواجهة بين الحق والباطل آتية لا ريب فيها ،
وأن زوجها ﷺ سيخوض حرباً لا هوادة فيها ضد أبيها
والمشركين معه من أهل مكة .

وأكدت الأيام صدق حديث رملة (رضي الله عنها) ، فقد

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالاستعداد لفتح مكة ، بعد أن
نقض المشركون العهد الذي وقّعوه معه في الحديبية .
وعلم المشركون أن محمداً ﷺ سينغزوهم في جيش
كبير لا قبل لهم به ، فاتفقوا على أن يرسلوا أحدهم إليه
لكي يفاوضه ويطلب منه الصّحّح والعفو عنهم ، واستقرّ
رأيهم على أبي سفيان وقالوا له : هذا هو الشخص الذي ينبغي أن يرسلوا .



- أنت سيد أهل قريش ، وابنتك عند محمد ، وإنا لنراك
أجدرنا بمناقشة محمد والتفاوض معه من أجل تمديد الصلح .
ووافق أبو سفيان على الذهاب إلى محمد ﷺ على
مضض ، فقد كان لا يتصور نفسه وهو يتحدث معه
ويخاطبه بعد هذا الصراع الطويل والحروب الضروس ،
التي أجج أبو سفيان نيرانها .

وتسلل أبو سفيان إلى المدينة خفية حتى لا يراه أحد ،
وقال لنفسه :

- لم لا أذهب إلى ابنتي رمة فقد تشفع لي عند زوجها
وتسهل على الأمر .

وذهب أبو سفيان إلى بيت ابنته رمة ، فحيّاها وأطمأن
على أحوالها وقال لها بعد ذلك :

- لقد جئت إليك لكي تشفعي لي عند زوجك يا ابنتي ،
فقد علمنا أنه ينوي غزو مكة وأهلها ، حيث أهلك
وعشيرتك !

فسكتت رمة ولم تجبه ، فهي تعرف أن الرسول ﷺ ،

مادام عزم على شيء فهو سيمضي إليه بإذن الله ، لأنه
 لا يتحرك عن أمره ، ولكنه يسير تبعاً لإرادة السماء .
 وهم أبو سفيان أن يجلس حتى يعود رسول الله ﷺ
 فيكلمه بنفسه ، ونظر في أرض الحجرة ، فوجد فراشا ،



فأراد أن يجلس عليه ، لكن ابنته أسرعَتْ وطوت الفراش قبل أن يصل إليه .

وتعجب أبو سفيان من صبح ابنته ، وسألها في دهشة :

- يا ابنتي لم طويت الفراش عني ؟ هل رغبت بهذا الفراش عني ، أو أن هذا الفراش لا يليق بأبيك ؟
فقالت رملّة :

- ورب محمد ، ما رفعت هذا الفراش ، إلا لأنك رجل مُشرك بالله ، فكيف آمنك على فراش يجلس عليه رسول الله ﷺ ؟

وأحس أبو سفيان بالحزن يعتصر قلبه فقال لابنته :
- يا بنية ، لقد أصابك بغدي شرٌّ .
فقالت في ثقة :

- بل أنت الذي أصابك الشرُّ كله بكفرِكَ بالله !

وخرج أبو سفيان من عندها حزينا حتى أتى النبي ﷺ فطلب منه أن يزيد مدة الهدنة ، فلم يرد عليه الرسول ﷺ بما يريحه .

فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصديق فتوسل به لكي
يكلّم رسول الله ﷺ ، لكنّ أبا بكر رفض ذلك وقال :

« ما أنا بفاعل » .
ولمّا يسّ أبو سفيان من أبي بكر ذهب إلى عمر بن
الخطّاب فكلّمه ، لكنّ عمر قال له :



– أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا
الذر لحاهدتكم به .

(أى لو لم أجد إلا الحصى أو الثراب لحاهدتكم به) .

وانطلق أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب ، فدخل عليه
وقال له :

– يا علي ، إنك أقرب القوم بي رحماً ، وإنى جئت فى
حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى
رسول الله ﷺ .

فقال علي بن أبي طالب :

– ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ
على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

وكانت فاطمة (رضى الله عنها) واقفةً معها ابنتها
الحسن ، فالتفت إليها أبو سفيان وقال لها :

– يا بنت محمد ، هل لك أن تأمرى بئيك هذا فيجبر بين
الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ :

- وَاللَّهِ ، مَا بَلَغَ بَنِي هَذَا أَنْ يُجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا يُجِيرُ
أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ الْأَمْرَ جَدًّا لَا هَزْلَ فِيهِ ، طَلَبَ مِنْ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ النَّصِيحَةَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ
جَاءَ ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ مَا سَوْفَ تَسْفِرُ عَنْهُ الْأَيَّامُ الْمُقْبِلَةُ ، فَعَادَ
أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ فَشَلَ فِي مُحَارَبَتِهِ ، وَأَخْبَرَ أَهْلَ
مَكَّةَ بِمَا حَدَثَ ، فَعَاشُوا فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ .



وعاد الرسول ﷺ إلى بيت زوجته رَمْلَةَ بنت
أبي سفيان ، فأعلمها بأمر أبيها وما جاء من أجله ، فدعت
للرسول ﷺ وللمسلمين بالفتح ، ثم قصت على رسول الله ﷺ
ما صنعتته مع أبيها حين أراد أن يجلس على فراشه ، فابتسم
الرسول ﷺ ، ورضى بما صنعتته ، وزادت مكانتها في قلب
الرسول ﷺ وفي قلب كل مؤمن ومؤمنة .

وبقيت أم حبيبة رَمْلَةُ بنت أبي سفيان تدعو الله أن يهدي
أباها إلى الإسلام ، وما ذلك على الله بعزيز ، وكلما تسأل
اليأس في إيمان أبيها إلى قلبها كانت تتلوه قوله (تعالى) :

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم
مودة والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾
(سورة الممتحنة : ١٧)

وقد نزلت هذه الآية حين تزوجها النبي ﷺ ، ولعل الله
أن يكون قد أراد بأبيها وقومها خيراً .

ومرّت الأيام وفتح المسلمون مكة وحطموا الأصنام
الملتفة حول الكعبة ، وجاء أبو سفيان في حماية العباس عم
النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ :

وَيَحْكُ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

— يَا أَبَى أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ! وَاللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ إِذْنٌ لِأُغْنِي عَنِّي شَيْئًا ،
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ !



فقال له النبي ﷺ :

— وَيَعْنِي يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ؟

لكنْ أَبَا سُفْيَانَ تَرَدَّدَ فِي الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ مَالَتْ أَنْ يَشْرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَتَأَلَّفَ قَلْبَهُ فَقَالَ :

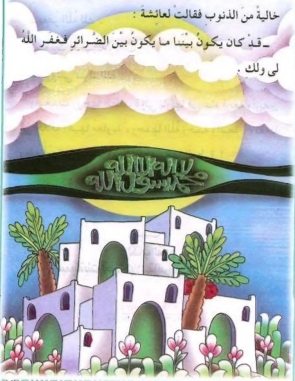
— مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ !

وَعِنْدَئِذٍ لَمْ يَعُدْ فِي حَيَاةِ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ مَا يَعْكُرُ صَفْوَهَا ، فَقَدْ آمَنَ أَبُوهَا وَقَوْمُهَا ، وَضَرَبَ زَوْجُهَا ﷺ أَرْوَغَ مَثَلٍ فِي السَّمَاةِ وَالرَّحْمَةِ ، بَعْدَ أَنْ عَفَا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَجَعَلَ لِأَبِيهَا مَكَانَةً كَبِيرَةً إِكْرَامًا لَهَا .

وَعَاشَتْ رَمْلَةٌ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ وَرَاحَتْ تَرَوِي عَنْهُ مَا سَمِعَتْهُ مِنْ أَحَادِيثَ ، وَرَوَى عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ .

وَحِينَ حَضَرَتْهَا الرَّفَاةُ دَعَتْ إِلَيْهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ وَرَاحَتْ

تَطْلُبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ تُسَامِحَهَا لِكَيْ تَلْقَى اللَّهَ نَقِيَّةً
خَالِيَةً مِنَ الذُّنُوبِ فَقَالَتْ لِعَائِشَةَ :
- قَدْ كَانَ يَكُونُ بَيْنَنَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الضَّرَائِرِ فَعَفَرَ اللَّهُ
لِي وَلَكَ .



فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ :

— يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ .

فَسَعِدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ وَقَالَتْ :

— سَرَرْتَنِي مَرْكُ اللَّهِ !

وَصَعِدَتْ رُوحُهَا الطَّاهِرَةُ إِلَى بَارِيهَا فِي عَامِ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ
فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا مُعَاوِيَةَ ، رَحِمَهَا اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَنَفَعْنَا
وَنَفَعَ أُمَّهَاتِنَا وَبَنَاتِنَا وَنِسَاءَنَا بِسِرِّتِهَا الْعَطِيرَةِ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

ميمونة بنت الحارث الهلالية (امرأة أحببت الله ورسوله)

رقم الإصدار : ٢٠٠٢ / ٢٢٢٦٦

الترقيم الدولي : ٩٧٩ - ٩٦٩ - ٩٦٩